(المقاربة النظرية لسوسيولوجية ابن خلدون وفعالية التنظيم في المؤسسة الاقتصادية العمومية الجزائرية)

أ.د.بوكربوط عزالدين

جامعة زيان عاشور الجلفة

ملخص: إن المقاربة السوسيولوجية لابن خلدون بقدر أهميتها فقد تعكس لنا الواقع الموضوعي للتنظيمات الصناعية والنماذج التنظيمية و التسييرية المنتهجة في المؤسسات العمومية الجزائرية أو في المؤسسات الاقتصادية الصناعية في الوطن العربي عموما، لكنها تفتقد في براغماتياتها وأدواتها التحليلية، ومخيلاتها السوسيولوجية لموضوعياتها في المجتمعات الغربية الرأسمالية المتقدمة أو حتى في مجتمعات النمور الآسيوية، على الرغم من أن تشعبات نظريات التنظيم والتطور هائلة، وبخاصة نظريات ما بعد الحداثة التي تركز بشدة ليس على (العصبية- الحضر) بل على أساس (الروح الفردية - الحداثة). هذه الروح القائمة على المعرفة بل إنتاج المعرفة في ظل مجتمع الموجة الثالثة.

كلمات مفتاحية: المقاربة النظرية ، ابن خلدون، فعالية التنظيم ، المؤسسة العمومية، الجزائر

تمهيد:

إن التعدد في التناول النظري و المفاهيمي الخاص بنظريات التنظيم والتوسع في اختلاف أطرها نظرا للمداخل المختلفة في مستوى طرحها ونظرتها إلى التنظيم ذاته يجعلنا نقف على خضم التراث الإنساني والتأني في مرجعية الوقوف على محتوى بعض الرواد أو الأنصار من أجل إقحام تصوراتهم في مختلف مستويات التحليل.

يجب أن تتم دراسة الأفكار المفاهيمية التنظيمية على أساس الخلفيات الإنسانية الاجتماعية المتحوّلة والاعتماد على المقاربات التي تخدم تصورات الباحثين وواقعهم السوسيولوجي من أجل رفض الأفكار الزائفة و هي الأفكار التي تحيد عن كشف الحقائق وتشخيصها بكل موضوعية خاصة إذا أمثتلت هذه الأفكار إلى الدوائر الرسمية لصنع القرارات لأنها تموقع ذات الأفكار في المستويات التحليلية إلى ترجمة الأهداف الذاتية، مما يدخلها في مجالات الشك والريبة ويفقدها الالتزام بلا حيادية التصورات والمواقف، وبعلمية النتائج وتبريرها، وربما تعكس هذه المحاولة على الأقل رسم إطار يقرب تموقعنا النظري مع المجتمع وأنساقه وديناميكياته.

1-العصبية الخلدونية و مقومات الفعالية الخلدونية:

لقد ابتدع ابن خلدون في أوائل الربع الأخير من القرن الرابع عشر موضوعه ومسائله التي لا تزال إلى يومنا هذا بالغة الأهمية على الرغم من مرور ستمائة سنة، مع التطورات الاجتماعية التي ألحقها العلم والتكنولوجيا والتصنيع .وتعرّف العصبية بأنها << الولاء والحلف إذ نعرة كل أحد على أهل ولائه وحلفه للألفة ...لأجل اللّحمة

الحاصلة من الولاء مثل لحمة النّسب أو قريبا منها >>[1] فهي إذن تعني الميل الفرداني والوجداني لتحكيم ومناصرة من هم أقرب ،ثم تحصين الانتماء الفرداني ذاته إلى كل مجالات الحياة الاجتماعية بهدف المناصرة والمدافعة والمحماة لمن تكّن لهم الولاء والطاعة والمحاباة والتقرب بالنسب والقبلية.فضلا عن << رابطة معنوية ذهنية، تصل وشائج القربى، وتشد اللحمة بين الأقرباء، والأولياء >>(1) وهذا ما يدل على أن الرابطة القرابية تشدها قوى خارجة عن إرادة الأفراد مهما اختلفت مجالات انتماءاتهم في المجتمع وتدرجها سواء الاجتماعية أم الصناعية أو الثقافية وغيرها، وهذه الرابطة تتقوى من ذاتية الفرد وميولاته لأنها تتوسع أكثر فأكثر حينما يلتمس بأن ميله معنوي لما يفترض أنه يتقوى بوجودهم وبشدة التقرب إليهم.

2-التنظيم من النسق المغلق إلى النسق المفتوح:

إن البداوة في نظر ابن خلدون هي التعبير عن بلوغ مرحلة أولية من الحياة الاجتماعية وهي المرحلة الأساسية التي يجب المرور بها، وهي تعيش مرحلة البساطة سواء في طرق العيش أم امتلاك الوسائل اللازمة لتنظيمها ونسج علاقات أفرادها نسجا نسقيا مغلقا، لكونها مجتمعات صغيرة لا تكاد تتجاوز القبيلة التي تعتمد في مصادر كسب رزقها على الفلاحة و الرعي والصيد بوسائل بدائية، نظرا لعدم كمال قدرتها على الصنع وإنجازه لما تتطلبه ضروريات القبيلة ذاتها. إن المجتمع البدوي وتنظيمه البسيط المعتمد على علاقات اجتماعية مغلقة هو فعلا التنظيم الذي يقترن بمرحلة التخلف.

بناء على هذه الخصوصية المجتمعية فإن المجتمعات التي مرت بها لابد من تجاوز بنيتها التنظيمية المختلفة بالبحث عن تنمية قدراتها الذاتية ويلجأ الأفراد إلى الاهتمام بالكماليات وتطوير الوسائل التي تساعد بلوغ مرحلة التفنن في الميدان الصناعي والإنتاجي الموفر والموسع إلى إعادة تنظيم علاقتها الاجتماعية في امتدادها المتشابك والمتداخل مع بيئتها الخارجية وتتفاعل معها، فمن الطبيعي أن هذه المرحلة المتسمة بخصوصية النسج العلائقي الممتد في نسق اجتماعي مفتوح تطبعه الصناعة، وتصبح متلازمة للحياة الحضرية في مجتمع واسع تتعدد فيه الوظائف في مختلف الميادين، وتتعقد أكثر فأكثر بعدما ألفها الفرد ببساطة تركيبها و نسقها، لذا يصبح العمران الحضري في المفهوم الخلدوني دليلا عن تقدم المجتمع في جوانب حياته الاجتماعية والسياسية والعلمية والصناعية والاقتصادية والعمرانية والبيئية، وتفرز وظائفه الاكتمال والدقة والتركيب وعلاقات اجتماعية أكثر تعقيدا.

3-العصبية: الانتقال من فاعلية النظام إلى فعالية التنظيم: إن التفاوت في درجة العمران منها ما يكون بسيطا قريبا من حياة البداوة البسيطة (المغلقة)، ومنها ما يكون مركبا يبلغ في نسجه التعقيد (المفتوح)، وكلاهما يرتبطان

(1) عبد الرحمان بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ضبط و شرح محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت،2006 ،ص129.

(1) بوزياني الدراجي، العصبية القبلية. ظاهرة اجتماعية وتاريخية (على ضوء الفكر الخلدوني)، دار الكتاب العربي، الجزائر،2003، ص24.

ويتفاعلان آليا مع فاعلية النظام السياسي لأن جوهر هذا النظام نفسه يعكس لنا تنظيم المجتمع في مستواه الكلي وتجاوزه لمرحلة القومي للحركات والانقسامات الصغيرة في مستواه الجزئي التي عادة ما يعتمدها الفرد نتيجة بحثه عن تلبية حاجاته و ضرورياته اليومية اجتماعيا.

وتصبح حينها السياسة الوسيلة المثلى لرفض أشكال الصراعات التي كانت قائمة بين أفراد المجتمع لحاجيات العيش، والاتجاه نحو التعاون مع بعضهم البعض في شكل قبائل متضامنة تجمعهم الحاجة إلى فرض وجودهم وتأمين معاشهم، لذا فإن فاعلية النظام الاجتماعي هو نسج البناء الكلي الذي لا يكتمل تحقيقه و وجوده إلا في ظل إقامة سلطة سياسية فاعلة.

إن فاعلية تنظيم السلطة السياسية هي التي تفكك كل الخلافات ويحل محلها الأمن والاستقرار الاجتماعي والتعاون بين الأفراد، فيلجؤون إلى اختيار قائد من بينهم تتوفر فيه القدرة على الزعامة والحنكة والبصيرة وقوة العصبية التي تمكنه من أداء وظائفه وتمركزه في سلطة القرار وصنعه وإتخاده، وهي عصبية متخدة من أهله وأقاربه وأنصاره المقربين، لكن المهم فالسلطة السياسية الفاعلة التي أنتجت بإرادة جماعية واختيار حر في البداية وباتفاق كل الأفراد، سرعان ما تتحول إلى سلطة قاهرة تتميز بالتنظيم الذاتي الفعال يتموقع ضد أهداف وحاجات الأفراد الذين دافعوا واختاروا الامتثال لقائدهم، ويصبح صاحب تلك السلطة متنكرا حتى لعصبيته من أهله وأقربائه وأنصاره، وهم في الواقع دعامات المكانة التي تجذب له القوة الاجتماعية الحقيقية رغم إخلاله بالمصالح الاجتماعية، ونظرا لإفراز الانتهازية السياسية الأكثر قهرا.

إذن فهذه العصبية التي تمكن المسؤول ربما غير الكفؤ من الانتقال من القيادة الجماعية إلى الاستبداد وحينها تصبح الغلبة لإشراف البدو الذين ازدادوا قوة بفعل المصالح الفئوية الاجتماعية الناجمة عن المجتمع الجديد وهو المجتمع الحضاري السياسي.

إن العصبية المضاءة أي الخارجة عن الأهداف الاجتماعية تجعل من المسؤول لا يدرك من الوضع إلا ما يخدم مصالحه الذاتية بدلا من المصالح الجماعية، ويُنبذُ أنصاره وعصبيته مما يؤدي إلى التصدع في البناء الاجتماعي الكلي القائم على التعاون وروح العمل الجماعي، وينقسم المجتمع أو يزول الحكم بعد انحلاله التام.

إن الدينامكية الداخلية لفعالية النظام الاجتماعي تعتمد التميز الأساسي <<بين البداوة والحضارة والواقع أن أسبقية البداوة على الحضارة هي ما يكشف عن فكرة التبدل التي تكشف بدوره، بتوضَيحها في مفاهيم العصبية والملك، عن دور العامل الديني.>>[1]

[1] جورج لابيكا، السياسة والدين عند ابن خلدون، ترجمة موسى وهري وشوقي دويهي، دار الفارابي، بيروت، ط ، 1980 ص87.

يحتاج الفرد إلى وسائل حياتية متجددة ومستمرة فهو متحرر من غرائزه الضارة ويعي دوره الفعال في تحقيق أهدافه، وهذه الأهداف يجب أن تنظم إلى أهداف الجماعة التي ينتمي إليها ويتعاون معها حتى يكتمل نقصه ويتحصل على أغراضه المستمدة من قوة عصبية جماعة العمل.

إن تحليلات الباحث للفكر الخلدوني بمقاربة سوسيولوجية خاصة بمجال التنظيم الصناعي يجعلنا نقف على التفسير الخلدوني السوسيولوجي والاقتصادي للدولة، إذ لا يمكننا التوسع في عمق النظرية الخلدونية وتجسيدها البراغماتي إلا بفك الارتباط التاريخي الموضوعي ما بين الدولة ككيان منظم للعلاقات الاجتماعية للسلطة العصبية من وجهة نظر ابن خلدون الذي يختلف عن كثير من المنظرين الآخرين الذين يعتبرونها كوسيلة للهيمنة الإيديولوجية للقوى الفاعلة في المجتمع - وجهة نظر ماركسية – أو باعتبارها كسلطة ضبط وتوازن لسلطة سياسية – وجهة نظر وظيفية – وغيرها.

4- قوة العصبية: الدولة والتصنيع نحو أي فعالية؟

إن المجتمع الذي ليس له نظام سياسي لا يمكنه أن يقيم المدن والأنصار، لأن نشأة المدن تتطلب نظاما اجتماعيا منسجما، وسلطة مركزية مستقرة، تساعدها على إقامة المؤسسات الاجتماعية والمشاريع العمرانية وإلى عاملين و رؤوس أموال، و لا يكتمل كل ذلك إلا في ظل إقامة النظام السياسي الذي يشرف على المجتمع وينظم جل مؤسساته وتنسيق أعماله، فكثير من الدول تنهار ولا تصل إلى إنجاز مشاريعها التي تتممها السلطة القائمة.

إن الحياة الاجتماعية التي تقام على الأسر وتتطور إلى العشيرة التي تضم عددا من الأسر التي تعود في أصلها إلى أب واحد ثم تتفرع تلك العشيرة إلى عدة عشائر التي تشكل قبيلة، و في العشيرة تبدأ روح الجماعة تقل وخاصة بانتقالها إلى القبيلة، وشعور الأفراد أنهم ينتسبون إلى أصل واحد، الأمر الذي يدفعهم إلى التعاون عند الأخطار، ثم أن هذه التجمعات الصغيرة النابعة من الأسرة لم تفتأ أن تتجاوز هذه المرحلة من المجتمعات الضيقة إلى مجتمعات أكبر وأوسع، وهي تكوين دولة بإتحاد عدة قبائل، وهذا الإتحاد يتسم عن طريق الانضمام والتحالف نتيجة وجود قرابة بواسطة مصاهرة أو دفاع، أو بواسطة القهر والتغلب، وفي البداية تكون الدولة صغيرة ثم تأخذ في التوسع والارتقاء تدريجيا، إلى أن تتحول إلى دولة كبرى ذات نفوذ واسع وخاصة إذا كانت ذات عصبية قوية وأرقى من العصبيات الأخرى.

فهكذا تتحول العصبية من العصبية الضيقة إلى العصبية الواسعة، ومن الحياة الفوضوية إلى الحياة النظامية لأن المجتمع بعدما كانت الجماعات القليلة متفرقة تسعى إلى كسب العيش بالوسائل البسيطة، وبسبل غير منظمة تلجأ إلى التعاون، وتنظيم عملها نظرا لخضوعها إلى قيادة عصبية محورية مستقلة رشيدة.

إذن التحول الطبيعي من أسلوب الحياة البسيطة المعتمدة على الزراعة والرعي والصيد في مرحلة البداوة إلى أسلوب الحياة المعقدة نظرا لتجمع مختلف القبائل و تأسيس دولة بقوة العصبية المحورية المستقلة يتم الانتقال الاجتماعي من البداوة إلى مرحلة الحضارة ، لأن التعاون في أداء العمل المنتج وتنسيق الأعمال وتوفر رؤوس الأموال عن طريق النظام السياسي الفعال، يؤدي لا محال إلى توطن التصنيع والتفنن في الصنائع والإنتاج الموَسع،

والتخصص وبالتحديد إنشاء العمران، لهذا فمرحلة الحضارة تتطلب التكيف مع حاجيات اجتماعية جديدة لأن التقشف وبساطة العلاقات الاجتماعية قد زالت بزوال مرحلة البداوة.

فمن الطبيعي حينها أن تتوسع المشاريع الكبرى، وتتوسع الأعمال و يزداد الطلب على الكماليات.ففي المجتمعات المتحضرة تتسم فيها الصناعة بالتركيب<< وتعتمد على العلم والمنهج الجيد في تعلمها وبما أن أهلها اجتازوا مرحلة البداوة القائمة على تطور الصناعة باستمرار، هذا فيما يتعلق بالصناعة في العمران الحضري الكثيف السكان.>>[1] ولا يتحقق كل هذا إلا بفعالية النظام السياسي-الدولة- والتي يكمن تحقيقها في الواقع بفضل إقامة فعلية للتعاون والانسجام بين الأفراد، وتحقيق الرفاه والاطمئنان، لأن مسار المجتمع و مشاريعه وصناعته وحضارته لا تنشأ إلا بتوفر الاستقرار الاجتماعي والأمن والاستغناء عن الصراعات والعدوان.

إن خصائص هذه الفعالية تبرز لنا جلية في نشأة و نمو المجتمع وتنظيمه الذي يفرض فيه التخصصات والتفنن وإتقان العمل والمهن، ويصل إلى درجة كمالية من الرقي والتقدم، على الرغم من انحطاطه عندما يصاب بدرجة عالية من الضعف والانحلال لأنه وببساطة << المُلْك والدولة غاية العصبية، وأن الحضارة غاية للبداوة و أن العمران كله من بداوة و حضارة و مُلك وسوقة له عمر محسوس، كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمرا محسوسا.>>(2)

إذن فالتصور الخلدوني يطرح ديناميكية نشوء الدولة و قوتها ثم انحطاطها، لأنها تقترن بالعمر المقيد زمانا ،و يبقى المجتمع ومؤسساته في حركية دائمة و تغيير مستمر مهما كان هذا التغيير تقدما أو انهيارا ، لأن << أحوال العالم و الأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص و الأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الأفاق و الأقطار والأزمنة والدول. >>(3)

إن العصبية التي تبدأ من كونها في الأصل << تدل على فئة ذات قوة صاعدة، لتغدو فيما بعد اسما يحدد فئة السلطة المستفيدة من الدولة. >>(4) هذه الفئة المستفيدة هي التي ينبغي لها أن تقيم المشاريع الصناعية الكبرى والمؤسسات الاقتصادية الإنتاجية، وتمكن من استخدام مختلف المصنوعات وتوزيعها واستهلاكها فضلا عن تنظيمها للأسواق وتروج للقطاعات الإنتاجية الصناعية، وتدعم توسعها وازدهارها، بل وتنظم كل المؤسسات الاقتصادية، باعتبارها الوسيلة التي تضمن الرخاء والوفرة والتقدم، لكن الانشغال المطروح في نظرنا يتحدد في تشخيص ماهية الشروط الموضوعية التي يجب أن تتوفر في المسؤولين والمسيرين لنجاح تنظيم وتسيير المؤسسات

(1)إدريس خضير،التفكير الاجتماعي الخلدوني وأثره في علم الاجتماع الحديث،موفم للنشر والتوزيع، الجزائر،2003،ص220.

(2) عبد الرحمان بن محمد بن خلدون،مرجع سابق ،ص 153.

(3)عبد الرحمان بن محمد بن خلدون، مرجع سابق،ص147.

(4)عزيز العظمة، ابن خلدون وتاريخه،دار الطليعة،بيروت، ط1، 1981،ص56.

التي يجب أن تتوافق مع السلطة السياسية، باعتبار أن الدولة هي المنظم الوحيد لآليات استمرار توسعها و نموها.

إن المنظور الخلدوني يراعي في تصوره الشامل والكامل على أن اختيار المسؤولين والمسيرين يتم على أساس توفر شروط القوى فيهم، وهذه القوى تكمن في قوة شخصيتهم و قوة عصبيتهم التي تتبعهم أمام مواجهة المشكلات الطارئة، وتساعدهم على فرض النظام وحفظ الأمن وقهر كل القوى الداخلية والخارجية التي يمكن أن تشكل خطرا يهدد مكانتهم ومصيرهم.مع العلم أن كل نظام عصبي يبنى عند ابن خلدون <<بفضل الملك بكيفيتين:إما لتدعيم السيادة القائمة، أو يصبو إلى السيادة والهيمنة، وإسقاط السلطة الضعيفة، غير القادرة على ضمان المعاش والعلوم، أي العمل والتربية للجماعات.>>([1])

5- مقاربة سوسيولوجية لعصبية السلطة في التنظيمات الصناعية الجز ائرية:

إن فعالية السلطة عند ابن خلدون ليست << وليدة تقسيم المجتمع إلى طبقات ولا وليدة التقسيم الاجتماعي للعمل، بل هي وليدة العصبية التي لها أساس ثقافي و تعبر عن أنساق من التصورات المؤسساتية والإيديولوجية التي تراكمت تاريخيا وفق عمليات ديناميكية التي عرفها مجتمع البدو والحضر على حد سواء.>>(2)

إن الفعالية في نظرنا تأخذ شرعيتها الاجتماعية من التوافق الطبيعي بين إرساء القواعد النظامية التسييرية و القوانين (لوائح ومقررات تنفيذية داخلية ونصوص تنظيمية) التي تحافظ على استمرار دور السلطة الفاعلة في استمرار حياة المؤسسات، و المهم أن دور هذه السلطة الحقيقية يجب أن تهيكلها قوة العصبية خاصة في مجتمع الحضر (المجتمع المعاصر) التي تأخذ فيه المهن والمشاريع الصناعية الكبرى وتتوزع المنتجات وتتزايد الحاجيات والكماليات والطلبات الاستهلاكية الواسعة... الخ.

و في هذا المجتمع بالذات تتضافر العمليات الديناميكية البنائية في مستوى النظم الاجتماعية المختلفة سواء السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية أو الدينية، و بخاصة على حد تعبير حسن الساعاتي << النظام التساكني في شكليه البدوي و الحضري.>>(1)[وبداخل المؤسسة الصناعية الجزائرية شكلت الفئة التقنوبيروقراطية التي تواطأت تاريخيا مع الدولة للمحافظة على تراكم رأس المال المالي، وتوزيع التوازنات الشكلية للسلطة إلى درجة التفويض لهذه الأخيرة كثيرا من الصلاحيات التسييرية.

(1)Boutefnouchet (M.),Société et modernité. Les principes du changement sociale, OPU, Alger, 1982.

p50.

(2)Hakiki (N.),khaldonisme sciences sociales et fondements du pouvoir politique, Alger,OPU,1982,p42.

(1)حسن الساعاتي، علم الاجتماع الخلدوني: قواعد المنهج، دار النهضة العربية، بيروت، 1972، ص61.

مما أفرز في نظرنا قوة عصبية محورية مستقلة التي تمثلها هذه الفئة بالذات، وهي في الواقع نتجت عن إلمام مختلف جماعات العمل وولائهم و ثقتهم و إنصياغهم نحو اختيار المسؤولين طواعية نتيجة قوة العصبية التنظيمية التي بفضلها تتربع سلطة هؤلاء المسؤولين في اختيار الإستراتيجية التسييرية، واختيار أفضل القرارات الملائمة مع الوضع الاجتماعي القائم، فضلا عن تعزيز مكانتهم وتقوية روابطهم و تقربهم أكثر إلى صانعي القرار السياسي الذين يعتبرون بدورهم أقوى عصبية محورية مستقلة على صعيد النسق السياسي (الدولة).

فيبقى دور العصبية المحورية المستقلة التي تتشكل داخل المؤسسة الاقتصادية رأسيا في مستوى أعلى هرم تدرج المسؤوليات التنظيمية و أقواها سلطة، وتسلك الأهداف الإيديولوجية التي يحملها المشروع التنموي الوطني، الذي يتم تجسيده في شكل قرارات إلزامية داخلية.

فلا ريب أن هذه العصبية المحورية المستقلة تلتزم بتنفيذ كل الاختيارات الإستراتيجية الصناعية الوطنية عن قناعة لكونها مهيكلة في نسق من العلاقات التنظيمية الرسمية لذلك نراها تدافع بقوة عصبيتها عن توجهات إيديولوجية الدولة في تبنيها لنماذج التطور الاجتماعي الرأسمالي وبخاصة عن تخليها التام عن إعادة النهوض و الدفاع عن القطاع الصناعي العمومي الوطني، وميلها أكثر نحو إعادة تطهيره ماليا وتكنولوجيا وتنظيميا بل تدعيم خوصصته.

إذن تدافع العصبية المحورية المستقلة عن الخطاب الإيديولوجي الرسمي و القانوني للدولة فهي تندرج تحت قوة عصبية هذه الأخيرة أيضا، لأنها أقوى العصبيات وأشدها سلطة ونفوذا فتحترمها و تهابها و تتذرع إليها في حالة الأخطار وسوء التوقعات في التسيير والإشراف والتوجيه والرقابة.

كما تحمل العصبية المحورية المستقلة كل الانشغالات الإستراتيجية لعصبية الدولة في تنفيذ مشروعها وتمرير اختياراتها الصناعية، فبعدما صادقت ونفذت سياسات تنظيمية وتسييرية مختلفة في حياة تطور المؤسسة الاقتصادية العمومية بدءا من التسيير الذاتي للمؤسسات ومرورا بالتسيير الاشتراكي و وصولا إلى اختيار بدائل تسييرية لنجاعة وفعالية هذه المؤسسة بانتهاج الخوصصة، نراها تلتزم شرعية خطاب الدولة القانوني الخاص بالاتجاه نحو تسريح العمال نهائيا أو التقليص من عددهم جزئيا بإتخاد إجراء التقاعد المسبق و الذهاب الإرادي، لكنها كثيرا ما تخفي الحقائق الموضوعية، وتبرر سوء التسيير أو الفشل في مشروعية الاختيار الإستراتيجي البعيد المدى لأسباب عدم فعالية أداء العاملين.

لذلك نجد العصبية المحورية المستقلة للمسؤولين تتمركز في المحافظة على مكاسبهم ومكانتهم المهنية والاجتماعية وخدمة مصالحهم، وهي مصالح لا تتوافق مع الأهداف التنظيمية و التسييرية للمؤسسة الاقتصادية.

رغم ذلك فإنهم يخططون وينسقون ويشرفون ويراقبون الأداء العمالي الفني والإداري والتنفيذي على حد سواء، ويسعون للمحافظة على الولاء وطاعة المرؤوسين، هؤلاء المرؤوسين يمثلون العصبية الثانوية التابعة لهم في مختلف المستويات القيادية أو غير قيادية الأفقية والعمودية داخل المؤسسة.

وتحاول العصبية المحورية المستقلة المحافظة نسبيا على تقديم بعض الخدمات للعصبية الثانوية التابعة كإرسالهم في بعثة للتكوين والتربص أو الترقية الداخلية، أو منحها وتفويضها بعض الصلاحيات لإتخاد القرار الذي لا يتطلب في كثير من الحالات تفويضها الرجوع إلى المركزية خاصة إذا كان نظام المؤسسة قائما على النهج الديمقراطي في التسيير.

وبالمقابل عندما تنحصر أو تغيب هذه الخدمات والامتيازات وتشعر العصبيات الثانوية التابعة التي يشكلها المرؤوسون بأن المواقف الرسمية للعصبية المحورية المستقلة (المسؤولون) قد تغيرت بتغيير المناخ التنظيمي خاصة إذا كان التغيير حتمي ويمليه النسق الاقتصادي الاجتماعي والسياسي كالتوجه نحو الليبرالية وخوصصته كقطاع عمومي ... الخ.

باعتبار المؤسسة الاقتصادية نسقا مفتوحا فلا ريب أن العصبية الثانوية التابعة تأخذ الحركية السلطوية الداخلية مأخذ الجد، خاصة عندما تنفذ قرارات تقليص من عدد العمال فتتلاشى عصبيتهم التي كانت بالأمس تتموقع في قوى العصبية المحورية المستقلة.

ويعد تموقع العصبية الثانوية التابعة بالذات والإنصياغ و الولاء والطاعة والاحترام للعصبية المحورية المستقلة بسبب فقدانها للمهارات والكفاءات الفنية أو الإدارية أو التنفيذية العالية، نظرا لكون فعاليتها منصهرة ومندمجة في مركز عصبيتها.

على هذا الأساس فعندما تدرك العصبيات الثانوية التابعة (المرؤوسون) بأن مصيرها وأهدافها تتناقض مع الأهداف التنظيمية للمؤسسة، وأن مكانتها فيما تفرضه الفعالية الاقتصادية الرأسمالية التي تقوم على مبادئ المهارات والكفاءات العالية والجودة والمنافسة والخضوع إلى قانون العرض والطلب ... إلخ، وهي مبادئ مفقودة الحلقات في المؤسسة التي ينتمون إليها ويعملون بها منذ سنوات عديدة، وأن إدماج هذه المؤسسة في المحيط العولمي أمرا يهدد مناصب عملها، وقد يحيلها على البطالة الفنية، لذا تلجأ إلى إعادة تشكيل قوة عصبية جديدة لأمرين أساسيين:

- التموقع مع عصبيات بديلة تخدم أهدافها ومصالحها مهما اشتدت الظروف المهددة لبقائها.

-التموقع مع عصبيات بديلة تعيد بناء إستراتيجياتها التحالفية ضد العصبية المحورية المشتغلة للإطاحة بها واستبدالها.

وبديهي أن العصبية المحورية المستقلة بحكم قوة عصبيتها تدافع عن مكانتها بحكم القوانين السارية المفعول، وتلجأ إلى إصدار العقوبات و الأحكام الجزائية التنظيمية الداخلية لفرض النظام وتهيمن العصبيات الثانوية التابعة (المرؤوسون) ، فضلا عن لجوئها لتعزيز سلطتها بإعادة تحالفها مع العصبية الهامشية، فهي عصبية غير رسمية تتشكل من العمال الممتدين في المحيط الاجتماعي الخارجي والمنتمين إلى نفس مؤسسة العمل.

فالعصبية الهامشية هي عصبية نفس المؤسسة المتواجدين و المنتشرين في الأحياء أو المساجد أو المقاهي أو النوادي الرياضية والجمعيات الوطنية أو الأحزاب السياسية، تبحث عن الدعم الذي مركزه قوة العصبية المحورية كي تعزز دورها في المؤسسة لصالح خدمة أهدافها بدل أهداف التنظيم. بالإضافة إلى ذلك فالعصبية الهامشية لا يهمها من عصبيتها إلا الولاء أو بحكم قرابتها أو علاقة المصاهرة التي تربطها في تحالفها مع العصبية المحورية المستقلة (المسؤولون) بهدف التحصل على المكاسب والحوافز المادية ودعم طلباتها وتغطية احتياجاتها المستمرة.

ولا تبحث العصبية المحورية إلا على تقوية نفوذها من الداخل، الذي يتأتى من مصادر السلطة القريبة من مراكز تواجدها، باعتبارها وسيلة تنفيدية لكل ما يصدر عن هذه الأخيرة من قرارات. لذا فإن طموحات العصبية المحورية المستقلة تتجاوز الأهداف العامة التي يرسمها تنظيم المؤسسة الاقتصادية العمومية، لأنها تلزم بخدمة الأهداف الشخصية المتسترة لأصحاب القرار الفعليين في قلب جهاز الدولة، وبحكم ولائها لها ،فهي لا تناقض أو ترفض خطابها بل تجسده، وفي بعض الحالات على أنقاض المصالح المشتركة للعمال، فلم تسع العصبية المحورية المستقلة إلى محاولة إعادة البدائل الجادة في تسيير المؤسسة الاقتصادية، بل نفذت إجراء التصحيح الهيكلي أو التقويم الداخلي والذي أفضى إلى التقليص من عدد العمال دون البحث عن آليات إعادة تجديد قوة العمل في محيط صناعي اتسم بالتشنج وبالتبعية المطلقة إلى الخارج، وبتفكيك تلك القوة وإحالتها إلى وضع بطالة مقننة.

وبناء على ذلك فإن نواتج قوة العصبية وفعاليتها في المؤسسة كامنة في الدلالة المنطقية للمهام والرضا المتبادل بين العصبية المحورية المستقلة وباقي العصبيات الثانوية التابعة أو العصبيات الهامشية، لضمان تحسين الأداء الكفء والإنتاج والإنتاجية.

5-1- نو اتج العصبيات في المؤسسة العمومية الاقتصادية:

بناء على ما سبق تتشكل في المؤسسة العمومية الصناعية ثلاثة مجموعات من العصبيات التنظيمية ويمكن للباحث تحديد نواتجها كما يأتي:

*المجموعة الأولى: وتشمل تحديد رؤية إستراتيجية ومستقبلية:

- تجسد هذه الرؤية للمسؤولين صانعي القرار وصانعي قرارات مستقبل المؤسسات الاقتصادية الصناعية العمومية، وقوة عصبيتها تجعل الالتزام بتقوية طاقات العمل، وتحفيز العمال، وتحديد معايير الفعالية، وخلق مؤسسة ناجحة تتماشى ومتطلبات السوق المنافس ، وفي هذا المستوى بالذات تتشكل بالموازاة قوة عصبية دولية عندما تتحالف العصبية المحورية المستقلة (المسؤولين، صانعي القرار السياسي الاقتصادي، أرباب العمل) مع شركاء أجانب يمتلكون قدرات فنية وتكنولوجية ومالية وتنظيمية رأسمالية متطورة، تتعزز علاقاتها الرسمية وغير الرسمية لتحقيق استثماراتها الصناعية التسويقية، وتتمكن من نقل رؤوس أموالها إلى بلدانها الأصلية، وفي كثير من الحالات استفادة هذه العصبية المحورية المستقلة من الخدمات التي يمنحها لهم الأجانب داخل وخارج الوطن، وعكس هذه الرؤية تدمر مستقبل المؤسسة وتقضي على دورة نمو حياتها واستمرار وجودها.

- يطبع المسؤولون معايير وتوقعات عالية للأداء، لأنهم يدركون أن الأهداف التي تنطوي على تحديات وفي آن واحد تكون قابلة للتحقيق، تؤدي إلى إنتاجية أكبر.

*المجموعة الثانية: وتشمل تموقع العصبية التابعة والهامشية في سلم القيم التنظيمية الخاصة بتحقيق أهداف التنظيم والمؤسسة الصناعية دون الأهداف الأخرى، عندما تعي المخاطر التي تهدد المؤسسة في حال عدم التقيد بالمعايير الفعالية الرأسمالية.

*المجموعة الثالثة: وهي عبارة عن تحالف العصبيات التي تنتج لنا ما يأتي:

- تقوية دافعية العامل، و دافع إنجازه، وتحقيق الأهداف.

- زيادة درجة التماثل مع قيم وأهداف التنظيم.

- زيادة الشعور الذاتي للعامل بقدرته على تحقيق الأهداف التنظيمية من خلال السلوك الفعال الجماعي لفرق العمل.

- تقوية اتجاهات الجماعية المشتركة نحو تحقيق النتائج المطلوبة.

إذن فإن فعالية قوة العصبية في المؤسسة العمومية الصناعية تتوافق بين سلطة المسؤولين الذين يحصلون على تقييم عال للأداء، والقدرة على إدارة المشروعات، وجداول العمل، وترشيد النفقات، وتحقيق الأرباح وفوائض الأرباح، وينظر إليهم من قبل العصبيات الأخرى على أنهم مسؤولون فعاليون، وأن مرؤوسيهم يتمتعون بالرضا وإنتاجية وجودة عالية تمكن تعزيز مكانتهم ومناصبهم، واستمرار دورة حياة المؤسسة. إن هذه المقاربة السوسيولوجية بقدر أهميتها فقد تعكس لنا الواقع الموضوعي للتنظيمات الصناعية والنماذج التنظيمية و التسييرية المنتهجة في المؤسسات العمومية الجزائرية أو في المؤسسات الاقتصادية الصناعية في الوطن العربي عموما، لكنها تفتقد في براغماتياتها وأدواتها التحليلية، ومخيلاتها السوسيولوجية لموضوعياتها في المجتمعات الغربية الرأسمالية المتقدمة أو حتى في مجتمعات النمور الآسيوية، على الرغم من أن تشعبات نظريات التنظيم والتطور هائلة، وبخاصة نظريات ما بعد الحداثة التي تركز بشدة ليس على (العصبية- الحضر) بل على أساس (الروح الفردية - الحداثة). هذه الروح القائمة على المعرفة بل إنتاج المعرفة في ظل مجتمع الموجة الثالثة.

المراجع:

(1)عبد الرحمان بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون ، ضبط و شرح محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت،2006 .

(2)بوزياني الدراجي، العصبية القبلية. ظاهرة اجتماعية وتاريخية (على ضوء الفكر الخلدوني)، دار الكتاب العربي، الجزائر،2003.

(3)جورج لابيكا، السياسة والدين عند ابن خلدون، ترجمة موسى وهري وشوقي دويهي، دار الفارابي، بيروت، ط 1980 ،

(4)إدريس خضير،التفكير الاجتماعي الخلدوني وأثره في علم الاجتماع الحديث،موفم للنشر والتوزيع، الجزائر،2003.

(5) عزيز العظمة، ابن خلدون وتاريخه،دار الطليعة،بيروت، ط1، 1981.

(6)Boutefnouchet (M.),Société et modernité. Les principes du changement sociale, OPU, Alger ,1982.

(7)Hakiki (N.),khaldonisme sciences sociales et fondements du pouvoir politique, OPU, Alger, 1982.

(8)حسن الساعاتي، علم الاجتماع الخلدوني: قواعد المنهج، دار النهضة العربية، بيروت، 1972.